

الصراع الحضاري بين الأمم حقيقة أم غطاء وهمي لمصالح خاصة

إعداد الدكتور
عبد الرحمن العمودي

أبيض

الصراع الحضاري بين الأمم حقيقة أم غطاء وهمي لمصالح خاصة؟

يمكن التأريخ للعلاقة بين العالم الإسلامي والغرب بثلاث مراحل :
(أ) المرحلة الأولى مرحلة الاستعمار الأوروبي للعالم الإسلامي
ومحاولة الغرب أن يفرض أطماعه في العالم الإسلامي من خلال ثلاثة
محاور :

١- محور ثقافي بفرض الثقافة الغربية من حيث التعليم وفرض المنهج الغربي وفصل التعليم الديني وتهميشه ، وذلك في البلاد التي احتلتها بريطانيا وفرنسا . ثم إعداد قيادة علمية وثقافية في بلاد الغرب تحمل فكرة الغرب من خلال أبناء الأمة ، وهذا ما سمي بالعلمانيين وشعبيا بالمتفرنجين .

٢- محور اقتصادي وذلك بالسيطرة على خيرات الشعوب واستخراج ثرواتها من البترول والمعادن والزراعة وغيرها .

٣- محور عسكري باتخاذ هذه البلاد قواعد واستخدام ممراتها ومواقعها لحماية المصالح الاستراتيجية والأمنية لهذه الدول .

ولكن رغم ذلك كله فشلت المحاولات لطمس الهوية وانتشرت المقاومات الشعبية التي أدت إلى خروج الغرب الاستعماري بعد أن ترك آثاراً عميقة كان أخطرها وجود قاعدة في قلب العالم الإسلامي ، وهو قيام دولة يهودية تفصل بين شرق الأمة وغربها وتهدد استقرارها وناء مستقبلها الحضاري .

(ب) أما المرحلة الثانية فهي مرحلة انتقالية بتولي عناصر موالية للغرب سواء كانت عناصر سياسية أو فكرية وثقافية ، وبروز تيارات فكرية أراد الغرب بقاءها حتى لا تقوم قائمة للعالم الإسلامي كأمثال تيارات القومية والشيوعية والعلمانية مزقت العالم الإسلامي ، وذلك مع بقاء أنظمة محافظة ولكنها محدودة تصارع على هويتها وسط التيارات العارمة . كل

هذه الفترة مرت بها ألامية الإسلامية في صراعات داخلية استهلكت طاقاتها وأهدرت إمكانياتها وجعلتها في آخر الأمم حيث أنها جرت إلى قضايا تآكل فيما بينها دمرت الاقتصاد ومزقت الناس وشتت القوى . وفي ظل الصراع الداخلي استفادت إسرائيل في تكوين قوتها الاقتصادية والعمرانية والعسكرية والتكنولوجية . وكانت أمريكا قد وضعت نفسها في بداية القوة البديلة لأوروبا ، ولكنها لم يتم تجربتها كاستعمار إذ أن الولايات المتحدة نفسها كانت ضحية الاستعمار وحاربت الاستعمار وأعلنت مبادئ الحرية والعدالة والمساواة خلافاً للشيوعية التي كانت على عكس ذلك . بيد أن المسلمين كانوا يتعاطفون مع روسيا الشيوعية أثناء الحرب الباردة لأن الولايات المتحدة وأوروبا كانوا يؤيدون ويدعمون دولة إسرائيل .

وكان الفكر الأمريكي محدود الأثر في العالم الإسلامي ، ولكن بسبب مخلفات الفقر والظلم والقهر من الأنظمة العسكرية وبداية سقوط الشيوعية توجه عدد كبير من الأنظمة تجاه الغرب الأمريكي . وبهزيمة العرب في ٦٧ أمام الجيش الإسرائيلي نتيجة وضع تلك الدول والبعث بينها وبين شعوبها وضياع الهوية الفكرية ، جعل الولايات المتحدة أكثر قوة وبداية حضور ووجود في العالم الإسلامي .

(ج) وهنا ظهرت المرحلة الثالثة: مرحلة الحوار مع الولايات المتحدة والذهاب إلى أمريكا باعتبارها مركز القوة الأكبر وطلب المساعدة في حل القضايا الاقتصادية التي تسيطر عليها الولايات المتحدة من خلال شركاتها ومن خلال تأثيرها على المؤسسات الدوليتين : البنك والصندوق الدولي . ثم استمرت هذه الحالة حيناً من الدهر ، وتدرجياً اكتشف البعض أن الأمر لا يعدو أن يكون سرايا ، وأن الرأسمالية لم تقدم إلا اليسير مقابل الكثير، فقد ألجمت الولايات المتحدة الحماس الإسلامي وكيفته وأعدته بأسلوبها ليتقبل الوجود الإسرائيلي والدخول في مرحلة السلام . ودخل العرب السلام على استحياء وتردد . ثم جاءت حربا الخليج

الأولى والثانية وسقط الاتحاد السوفييتي وقلبت الموازين ، فانتقلت الحكومات من مرحلة التعاون إلى مرحلة التحالف والقبول بالمشروع الغربي بدون نقاش سياسيا وثقافياً وفكريا وبهرولة شديدة ، والقبول بالشروط الغربية والتسابق على السير في الركب الأمريكي . ولكن الولايات المتحدة لم تكن لتدرس أحوال الأمة الإسلامية ، ونظرت للأمور من خلال الحكام لا الشعوب ودفعت بالأمور لصالح إسرائيل ولم ير الناس الوعود الأمريكية بالرفاهية والسعادة ورأوا أن الأمور كما هي:

- فساد اقتصادي وظلم وتسلط فئات على فئات .
- ازدياد الأغنياء ثراءً وازداد الفقراء فقراً وحرماناً .
- لم يتغير شيء في مجال الحريات وحقوق الإنسان .

ولم تدرك الولايات المتحدة أن هذه الأمة لها تاريخ وهوية لا يمكن نسيانها، وأن الحكام والمثقفين الذين والوا الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة قد زوروا لها الحقائق وخدعوها بأن الناس قد أصبحوا قطعة فكرية من الغرب ، وأن الشباب ليس له إلا المراقص والأغاني وأنه أصبح يحب الديسكو والجينز ويتناول وجبات الماكدونالدز والبيتزا وكل أنواع الهمبرجر ولم يعد هؤلاء يفكرون بالسياسة والفكر .

ولكن المفاجأة كانت ظهور تيار معارض معاد للغرب وفكره وناقم على الأوضاع كردة فعل للأوضاع الداخلية وللحرب المكشوفة على ثقافتهم وهويتهم .

ثم إن أهم معالم هذه المرحلة كان هجرة أعداد كبيرة من المسلمين إلى بلاد الغرب هروباً من القهر والظلم والفقر وبحثاً عن لقمة العيش والحرية . وعندما وصلوا هناك وجدوا تنوعاً هائلاً في الثقافات والأفكار ، وكان تفاعلهم في معظمه إيجابياً مع هذه الحضارة الجديدة التي قدموا عليها، ولم توجد أي صراعات حضارية أو فكرية بل تفاهم ووثام - ما عدا القضية الفلسطينية التي كانت تعيش في أذهانهم - ونظراً لعدم تكون الجاليات

الإسلامية على مستوى حضاري من الإدارة والعمل الجماعي ودراسة المجتمع الغربي - فإن هؤلاء قد ضيعوا فرصا كبيرة ليحققوا آمالهم . ولم تكن هناك أي أحقاد أو عداوات بينهم وبين مجتمعاتهم الجديدة.

ولكن العالم فوجئ بأشخاص وفئة ممن سموموا بالأفغان العرب الذين استفاد منهم الغرب في الحرب الباردة وأغلب هؤلاء ليسوا من المدارس الدينية. ثم إن بعض هؤلاء الذين عاشوا في الغرب كانوا في الحقيقة معزولين عن الجاليات الإسلامية والدول الإسلامية، ولهم عالمهم الخاص، ولم يتفق أحد معهم في تصوراتهم، بل إنهم لا يشاركون جموع المسلمين في مساجدهم ومدارسهم . ولم يكن أحد يتصور ما سيحصل من هؤلاء الذين كانت لهم أمور مربية من تسهيل وتوفير الأموال لديهم. وحصلت أحداث سبتمبر المؤسفة المفاجئة التي هزت العالم وقلبت الموازين.

ورغم رفض المسلمين لهذه الجريمة الشنعاء واستنكارهم لها إلا أن الغرب قام وبسبب الغضب بوضع المسلمين كلهم في موقف واحد متجاهلين مواقف المعارضين من دول ومنظمات وأفراد وتبرئتهم من هؤلاء . ورأى المسلمون أن الأمور سارت على مراحل:

• **المرحلة الأولى:** مقاومة الإرهاب والدعوة إلى تحالف دولي ضد الإرهاب . وأيدت الدول العربية والإسلامية هذه الدعوة وتضامنت مع الولايات المتحدة الأمريكية وتعاونت في كافة المجالات . وعبرت المنظمات والجاليات الإسلامية عن هذا المعنى في بياناتها وممارساتها.

• **المرحلة الثانية:** وقف دعم وتمويل الإرهاب، وكذلك أيدت الدول العربية ذلك في حدود الإرهاب . ولكن فوجئ المسلمون بإدراج أسماء منظمات وأشخاص بطريقة عشوائية مع كونهم مع المعتدلين بل من المرفوضين من قبل الإرهابيين أنفسهم، حيث أن هؤلاء الإرهابيين يعادون الناس لاختلافهم مع نهج العقلاء الذين يحترمون القوانين ولا يوافقون على مثل هذه الأعمال. ثم فوجئ المسلمون بإدراج مساعدة الفلسطينيين تحت

هذا البند وجعل أمن إسرائيل التي مارست أبشع أنواع الإرهاب ضد الشعب الفلسطيني مطلباً من مطالب محاربة الإرهاب.

● **المرحلة الثالثة:** فوجئ المسلمون بحملة ضد الإسلام والمسلمين والدول الإسلامية وعلى رأسها المملكة العربية السعودية لتمسكها بالمبادئ الإسلامية، والحملة ضد المناهج والمدارس الدينية التي لا علاقة لها بالموضوع ولم يثبت مشاركة أي خريج من مدرسة دينية في هذه الأعمال. واستهدفت الحملة مبادئ الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم وإصاق التهم بالدين والعودة إلى فترة المستشرقين أيام الخمسينات.

● **المرحلة الرابعة:** مرحلة تغيير الأنظمة العربية وإيجاد أنظمة توافق الغرب، والقول بتطوير مبادئ ودساتير ومناهج وأنظمة العالم الإسلامي ليصبح قطعة من الغرب. وصياغة نظام في العالم العربي خاصة والإسلامي عامة ليصبح جزءاً من الفكر والحضارة الغربية متجاهلين ما حصل من صراع سياسي وفكري في الخمسينات والستينات، ثم الصراع مع الشيوعية، ولم يتغير العالم الإسلامي وسقطت كل النظريات والشعارات.

إن هناك فريقاً في الغرب ينادي ويدعو إلى الصراع الحضاري لإعادة صياغة العقل الإسلامي والعربي ليوافق النهج الغربي عن طريق القوة والتخويف والهيمنة. وتتأسى هؤلاء لغة الحوار والتنوع في الفكر والمذاهب بين الشعوب والدعوة إلى التعاون والتفاهم. ولذا فإن فكرة الصراع الحضاري أكذوبة كبرى. فإن الشعوب الغربية لا تجد بينها وبين المسلمين أي صراع. فالأقليات الإسلامية في بلاد الغرب لا تشعر بأي قهر أو اضطهاد بل على العكس فإن المسلمين وجدوا في الغرب واحة الأمان والحرية، ووجدوا شعوباً لا تفرق بين جنس ودين. وكذلك الأوروبيون الذين يعيشون في رحاب العالم الإسلامي لا يشعرون بالعداوة والبغضاء والصراع، بل ينعمون بمبدأ «لا إكراه في الدين». ولكن ظهور بعض العناصر المتطرفة في العالم الإسلامي - وهم فئة قليلة - ووجود من يدعمهم في الغرب، أوجدوا فكراً متطرفاً منحرفاً لا

يمثل الإسلام والمسلمين في شيء . وكذلك يوجد في الغرب فئات متعصبة متطرفة (اليمن المتطرف) وبعض العناصر الصهيونية الحاقدة المتنفذة في وسائل الإعلام ومراكز الدراسات والبحوث، سعت جاهزة لدفع الغرب بقوة لشن حرب ضد الإسلام والمسلمين مستغلين في ذلك أحداث سبتمبر أبشع استغلال وأرخصه.

واليوم ونحن نقف على أعتاب هذه المرحلة التي تمثل منعطفاً حرجاً في التاريخ ، فإننا نواجه تحديات كبيرة ، فإما أن نجعل منه منعطفاً نحو التفاهم والتعاون والتكامل الحضاري تتكاثف فيه الجهود وتوجه الطاقات لإسعاد البشرية ، أم نجر إلى سلسلة لا متناهية من الصراعات والحروب تهلك الحرث والنسل وتنهك العباد والبلاد .

وعليه فإن مسئولية المسلمين اليوم وهم يقفون أما مرحلة التحدي هذه عظيمة ، وعليهم أن يحذروا أن يجروا - بفعل الهجمة الشرسة عليهم - إلى ما أريد لهم من حروب استنزاف وإهلاك. بل لا بد لهم من الارتقاء إلى مستوى التحدي وضرب النموذج للبشرية في التكامل والتعامل الحضاري لا العكس .

إن العناصر الحاقدة على الإسلام من اليمين المسيحي المتطرف والصهيونية الحاقدة ، لم يسرها انتشار الإسلام في كل أركان العالم، ودخوله إلى بلاد الغرب وتعامله مع الحضارة الغربية بل واستيعابها ، ودخول الغربيين أفواجا في دين الله . فسعت بعد سقوط المعسكر الشيوعي إلى جعل الإسلام - عنوة - العدو الجديد والخطر الداهم الذي يكاد يقوض أركان الحضارة الغربية، وأخذوا يروجون لكذبة الصراع الحضاري بين الغرب والإسلام على أسس فكرية وتاريخية واهية . وأخذوا يضحون بكل ما لديهم من إمكانيات مادية وسياسية وأكاديمية وإعلامية لمهاجمة المسلمين وإشغالهم بأنفسهم وإقناعهم بالهزيمة .

ولكن على المسلمين - وهم دعاة الحق - الصبر على البلاء والتمسك بالحق واعتماد سياسية النفس الطويل والثبات، فإن فعلوا فلن تستمر هذه السحابة السوداء كثيراً بإذن الله .

ولكن على المسلمين - مع ذلك - أن ينظروا إلى أنفسهم نظرة الفاحص الصادق مع نفسه والناصح الأمين الحريص على كيانه فيقوموا الاعوجاج ويسدوا الخلل ، فإله سبحانه لا يخذل المسلمين إلا لخلل من عند أنفسهم .
وإذا أردنا أن ننظر نظرة تفقدية في أحوالنا فإننا يمكن أن نضع أيدينا على عدة مناح تحتاج إلى الارتقاء والبناء من أهمها ما يلي:

١- الوحدة : المسلمون مفرقون وصفوفهم مبعثرة ، كلمتهم متفرقة ومواقفهم متباينة ، وعدوهم يضرب بعضهم ببعض ويسلط بعضهم على بعض ، يوقع بينهم الشحناء والبغضاء وفيينا سماعون لهم . وديننا دين الوحدة والأخوة الإيمانية والاتفاق ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ . ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ .

٢- التخطيط : فالعالم اليوم يقوم على التخطيط والنظام القائم على الدراسات التخصصية المستفيضة . ويشتمل التخطيط فيما يشتمل على دراسة فكر الآخرين ونظرتهم لنا ومناحي القوة والضعف لديهم، والإطلاع على حركة الفكر عندهم، ومتابعة حركة المؤتمرات وحركة النشر. وكذلك دراسة مجتمعاتنا وشعوبنا والتيارات الفكرية والمؤثرات النفسية والتطلعات الحضارية، ووضع إطار عام لخطة التعامل مع الآخر قائم على فهم الذات وفهم الآخر . وكذلك دراسة القوانين والأنظمة العالمية وكيفية الاستفادة منها والعمل من خلالها وعدم مخالفتها ما لم تتعارض مع تعاليم ديننا الحنيف. والتدرج والواقعية في التخطيط على ضوء الإمكانيات المتاحة لا الخيال والأحلام، والاستفادة من أهل التجارب في الميادين المختلفة.

٣- إيجاد المؤسسات المهمة الضرورية كمركز لحوار الحضارات لنقدم مبادئنا للمجتمع الغربي وللعالم، وإقامة المراكز الثقافية في العواصم العالمية الرئيسية وإقناع الدول الإسلامية بذلك لتحمل مسؤوليتها دون يأس مع السعي المستمر حتى نصل إلى النتائج المرجوة.

- ٤- التواصل مع الإدارة الأمريكية والمؤسسات الغربية في البلدان المختلفة، وذوي النفوذ والتأثير من الشخصيات الفكرية والدينية والسياسية والأكاديمية ، والأجهزة ذات العلاقة بقضايا المسلمين باستمرار ودون يأس.
- ٥- تأهيل الجاليات المسلمة المغتربة علميا وفكريا وثقافيا واقتصاديا ليصبحوا قوة تأثير إيجابية ، وحثهم على المشاركة الفعلية السياسية والاجتماعية في المجتمعات الغربية والاستفادة من كل الفرص المتاحة والقنوات المفتوحة لإيصال الصوت الإسلامي المعتدل للعالم .
- ٦- السعي للحفاظ على هوية المسلمين في بلاد الغرب وذلك من خلال المدارس والمراكز الشبابية ودور النشر والكتب والمواد الإعلامية والتربوية المختلفة .
- ٧- توثيق عرى التعاون بين الجاليات المسلمة في الغرب وبين سفارات الدول الإسلامية والعربية في تلك الدول فكل منها امتداد وتعبير طبيعي للآخر.
- ٨- الوصول إلى التجمعات الدينية والفكرية لغير المسلمين والتعرف عليهم والتعاون معهم في المساحات المشتركة .
- ٩- تطوير الخطاب الإعلامي وإيجاد القنوات الإعلامية داخل بلاد الغرب وعبر الفضائيات والتأكيد على نشر فكر الاعتدال والتوسط .
- ١٠- تأسيس مجلس تنسيقي أعلى للمسلمين في بلاد الغرب لوضع الخطط وتنفيذ البرامج ، وعقد مؤتمر سنوي عام لهذا الغرض .
- ١١- تكوين صندوق خيري تأسسه الدول العربية والإسلامية ويساهم فيه أهل الخير بهدف تطوير مستوى أداء منظمات الجاليات الإسلامية المغتربة.
- ١٢- قيام المختصين في الدول الإسلامية بإعداد وتأهيل الجاليات الإسلامية المغتربة اقتصاديا للوصول إلى التمويل الذاتي عن طريق مشاريع اقتصادية ناجحة مع التنسيق والاستفادة من الاقتصاديين المسلمين المغتربين.

عبد الرحمن العمودي
رئيس المؤسسة الإسلامية الأمريكية